

تصاعد وتراجع العداء بين الغرب والإسلام منذ ما قبل الحرب العالمية الأولى وحتى الآن

محمد إبراهيم مبروك

مفكر إسلامي

ملخص الدراسة

إن الصراع بين الإسلام والغرب صراع قديم وعميق بدأ كصراع نفوذ بين الإسلام والإمبراطورية الرومانية، وترك ثأرًا عميقًا لدى الغرب؛ لسيطرة الإسلام على الجانب الأكبر من تلك الإمبراطورية.

لكن هناك سببًا آخر قد يكون أشد الأسباب جميعًا لعداء الغرب للإسلام في المرحلة الاستعمارية ما قبل الحرب العالمية وبعدها، وهو ما وجدوه من أن الدافع الرئيس لما يواجهونه من مقاومة شعوب تلك الدول الإسلامية هو الذود عن الإسلام، ورفع شعار الجهاد.

إن مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية والتي امتدت حتى سقوط الاتحاد السوفييتي في أوائل التسعينيات شهدت تراجعًا نسبيًا في العداء بين الغرب والإسلام، مادام أن تطبيق الإسلام الشمولي لم يتمثل في الواقع الفعلي، وأن عددًا مقدرًا من الدول الإسلامية يمكن توظيفها في تحقيق المصالح الغربية الأمريكية بوجه خاص. ولكن ما إن تصاعدت المطالبة بالتطبيق الفعلي للإسلام في العقد الأخير من هذه المرحلة حتى تصاعد العداء مرة أخرى بينه وبين الغرب.

إن القوتين اللتين تتقاسمان النفوذ على العالم هما نتاج ثقافة غربية تتفق أيديولوجيتهما في العلمانية والمادية، وإقصاء الدين عن الحياة، وتختلفان ولو شكلاً في الديمقراطية والاستبداد، فبينما يسيطر على الاتحاد السوفييتي نخبة من السياسيين الدكتاتوريين؛ يسيطر على الولايات المتحدة نخبة أكثر اتساعًا من رجال الأعمال والسياسيين والإعلاميين تتحالف فيما بينها على أن لا يخرج القرار الأمريكي في النهاية عن دائرة نفوذهم.

وما نراه أنه من بعد انتقال الثقل الحضاري الغربي إلى أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية فإن الصراع بين الغرب والإسلام في هذه المرحلة يتوج في مضمونه العميق مسيرة طويلة من الصراع الفلسفي بين التوجه البرجماتي للحضارة الغربية ومختلف الفلسفات والأيديولوجيات والمذاهب الأخرى، وبعد سقوط الأيديولوجية الماركسية بعد انهيار الاتحاد السوفييتي كان استقطاب الصراع بين الليبرالية البرجماتية والإسلام أمرًا حتميًا؛ لأنه يحمل الأيديولوجية الوحيدة المؤهلة للصمود والتحدي بحسب رؤية المفكرين الغربيين أنفسهم بعد أن استطاعت الليبرالية البرجماتية تفكيك الأيديولوجيات العالمية الأخرى.

الحلول التي يجدها الغرب للتوافق مع الإسلام أو توافق الإسلام معه بقول أدق يمكن تلخيصها هنا بثلاثة مصطلحات: (الشرق الأوسط الجديد- الإسلام الليبرالي- الإسلام المعتدل)، وتشترك الحلول الثلاثة في هدف واحد هو توظيف الإسلام ودوله في خدمة المصالح الغربية، ويكاد يكون هذا الهدف هو المحور الأساس للمفاهيم الثلاثة، ثم يكون الخلاف بعد ذلك في التفاصيل.



تصاعد وتراجع العداء بين الغرب والإسلام منذ ما قبل الحرب العالمية الأولى وحتى الآن

محمد إبراهيم مبروك
مفكر إسلامي

أولاً: ما قبل وما بعد الحرب العالمية الأولى:

الضباب الذي يخيم على الواقع الإسلامي الآن ومستقبلاً لا يعود مصدره لبضعة عقود وإنما لأكثر من ثلاثة قرون مضت؛ فلقد كان المشهد الأخير لعظمة القوة الإسلامية يتمثل في حصار الإمبراطورية العثمانية لأسوار فيينا عام ١٦٨٣م، وبالنسبة للغرب فإن الأتراك «لو أنهم نجحوا في الاستيلاء على فيينا لكان الوضع مروعًا بذات الدرجة التي سيكونها لو أن المسلمين العرب هزموا تشارلز مارتل في تورووبواتيه منذ ألف سنة مضت».[1]

إن الصراع بين الإسلام والغرب صراع قديم وعميق بدأ كصراع نفوذ بين الإسلام والإمبراطورية الرومانية، وترك ثأرًا عميقًا لدى الغرب؛ لسيطرة الإسلام على الجانب الأكبر من تلك الإمبراطورية، واحتدم أكثر عندما تم استغلال المسيحية لتحقيق مطامع ملوك الغرب في الحروب الصليبية، وترك ثأرًا أكبر لعودة هذه الحملات المهزومة مشتتة ضائعة في شعاب أوروبا.

ولكن هل كان هجوم الغرب على الإسلام في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بدافع الانتقام لهذا الثأر المسيحي؟

منذ اندلاع الثورة الفرنسية بل وقبلها بأكثر من قرن كان أغلب الأوروبيين قد هجروا الدين تمامًا، وسيطرت العلمانية على عقولهم، ولذلك فقد كان وصف شيوخ الأزهر للفرنجة الفرنسيين أثناء الحملة الفرنسية بهؤلاء (الذين لا دين لهم سوى دين العقل)، وهو الأمر الذي يغيب- مثله مثل أمور أخرى كثيرة مهمة- عن عقول الغالبية من أهل الإسلام وقادتهم الآن.

ولأنه لا يمكن اعتبار الغربيين كتلة واحدة في معتقداتهم وأفكارهم، فإن ذلك لا ينفي أن اعتبارات الثأر المشار إليها كانت تغيب عن جانب مهم منهم في تلك الهجمة الاستعمارية على الإسلام، ولكن يظل الجانب الأعظم من الغربيين كانت تتنازعه الأفكار التالية عشية نشوب الحرب العالمية الأولى: «بسبب الطريقة التي تجري بها الأمور، فإنه لا يمكن لك أن تمتلك كفايتك من الأراضي، حيث ستكون دومًا بحاجة إلى المزيد منها. فمزيدًا من المستعمرات يعني مزيدًا من المصانع، ومزيد من المصانع يعني مزيدًا من المنتجات، والمزيد من المنتجات يعني الحاجة إلى المزيد من المستعمرات».[2]

يشرح السلطان عبدالحميد في مذكراته الوضع العالمي في العقود السابقة للحرب العالمية الأولى كالتالي: الشيء الذي لفت انتباهي بادئ ذي بدء في السياسة الخارجية وقت اعتلائي العرش كان تأسيس الاتحاد

(١) أي إتش غومبريتش، مختصر تاريخ العالم، سلسلة عالم المعرفة، العدد٤٠٠، ص٢٥٩.
(٢) المرجع السابق: ص٣٢٤.



الألماني.. هذه الدولة التي ولدت وأسرعت في التوسع في عدة أعوام أفسدت توازن القوى في أوروبا، وأدت بالدول الأوروبية كلها إلى ضرورة إحداث تغيير كبير في سياستها الخارجية.

خففت فرنسا -المتنافسة مع إنجلترا- من حدة تنافسها وإن لم تتركه، وبدأت في البحث عن طرق للتفاهم مع الروس لحماية أمنها. كانت تؤيد باستمرار الروس في خلافاتهم مع الدولة العثمانية.

وبدأ الروس يعملون حسابًا للألمان، جيرانهم الأقوياء في الغرب، وأقامت النمسا من جديد سياسة التداخل بين العدو والصديق. وأما إنجلترا وهي تعتمد على جزرها وعلى أسطولها القوي فلم تكن على وفاق كبير مع ألمانيا بسمارك، بل إنها استفادت من نزاع الدول الأوروبية الأخرى مع بعضها البعض، واتبعت طريق تأمين مصالح جديدة لها في أراضي الدولة العثمانية في البحر الأبيض وفي آسيا، وسلك جلادستون سياسة (اعمل ما تستطيع عمله، واكسب ما تستطيع كسبه..)، والروس حولوا أيضًا أنظارهم في تلك الأعوام إلى آسيا الوسطى، واستولوا على فرغانة وخانية خوقند، وعقبوا ذلك بالاستيلاء على قرغيزستان وتركستان وطاجيكستان، وكان التنافس بين الإنجليز والروس عظيمًا في آسيا[1].

وعلى الرغم من مرور حوالي قرن كامل، وتبعًا للمراجع العالمية فإن تحليل السلطان عبدالحميد للموقف كان دقيقًا للغاية. ولكن ماذا كان يمكن فعله تجاه هذا الموقف؟ **يجيب عن ذلك السلطان عبدالحميد فيقول:**

«لم أكن أستطيع الوقوف أمام هذه القوى كلها بمفردي. طاقاتنا لم تكن تكفي. الشيء الوحيد الذي كنت أستطيع عمله هو أن أفيد من التنافس بين هذه القوى. هذه الإفادة كانت عبارة عن توزيع الأمل، في لقمة كبيرة بعض الشيء على كل واحدة منها، والإيقاع بين كل واحدة والأخرى»[2].

ويقول في موضع آخر: «منذ أربعين عامًا وأنا أنتظر أن تشتبك الدول لإنقاذ دولتي الكبرى، مع بعضها البعض» [3].

(١) مذكرات السلطان عبدالحميد، نقلاً عن محمد إبراهيم مبروك، لماذا لا نقول لا للنموذج التركي، ص ٧١- ٧٢.
(٢) المرجع السابق: ص٧٢.
(٣) المرجع السابق: ص٧٤.

لكن قادة تركيا الفتاة الماسونيين الذين عزلوه لم يستغلوا الفرصة، وإنما ورّطوا الإمبراطورية في حرب منحت الدول الاستعمارية الذريعة لتحقيق مطامعها القديمة لتقسيمها بينهم.

وكما ذكرنا من قبل فلم تكن المطامع وحدها هي الدافع لهجوم الغرب على العالم الإسلامي، كان هناك أيضًا جانب الأحقاد الصليبية القديمة مثلما ظهر في قول القائد غورنو عندما ذهب إلى قبر صلاح الدين بعد استيلاء الإنجليز على الشام، وصاح قائلاً: «ها قد عدنا يا صلاح الدين».

لكن هناك سببًا آخر قد يكون أشد الأسباب جميعًا لعداء الغرب للإسلام في المرحلة الاستعمارية ما قبل الحرب العالمية وبعدها، وهو ما وجدوه من أن الدافع الرئيس لما يواجهونه من مقاومة شعوب تلك الدول الإسلامية هو الذود عن الإسلام، ورفع شعار الجهاد، ولهذا فقد كان صراخ بعض قادتهم أنه لا حل للاستقرار في تلك البلاد إلا بتحطيم الكعبة، وتمزيق المصحف الشريف!!

وهكذا جاءت شروط معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣م لترك الجيوش الغازية أراضي تركيا التي تعرف بها حاليًا كالتالي:

- إلغاء الخلافة الإسلامية.
- إخراج آل عثمان من تركيا إلى الأبد.
- إلغاء الشريعة الإسلامية، والاستعاضة عنها بدستور مدني مستمَد من القوانين الأوروبية» [١].

لكن الغربيين لم يكتفوا بكل ما سبق، وإنما زرعوا لهم مهاجرين يهود من كل أنحاء العالم ليتخذوا من فلسطين -أولى القبلتين وثالث الحرمين- وطنًا لهم، ولتكون للغرب بمثابة مخلب القط الذين يعملون من خلاله على تركيع المسلمين وابتزازهم، وجاء وعد بلفور أثناء الحرب العالمية الأولى مسبغًا الشرعية على كل ذلك.

ثانيًا: الغرب والشيوعية والإسلام:

لم تحمل روسيا من أوروبا حضاريًا سوى التراث الكلاسيكي البيزنطي، ومن ثم لم تتعرض لظواهر الحضارة الغربية التاريخية: الكاثوليكية الرومانية، الإقطاعية، الإصلاح الديني، التوسع فيما وراء البحار، التنوير، ظهور الدولة القومية.

ولكن بعد استقرار الحكم الإسلامي المغولي فيها لحوالي قرنين من الزمان جاء الانبعاث الروسي مع بطرس الأكبر في أواخر القرن السابع عشر الذي عمل على الجمع ما بين استلهام التقدم الغربي وترسيخ الاستبداد الآسيوي في آنٍ واحد. وهو نفس النهج الذي اتبعه من بعده «كاترين الثانية» و «ألكساندر الثاني»، وكذلك «لينين» و«ستالين» بدرجات متفاوتة.

بعد الثورة البلشفية انقسمت الأحزاب اليسارية في الدول الغربية إلى أحزاب شيوعية واشتراكية، وكلاهما كان قوة مؤثرة في الدول الأوروبية، حتى ساد المنظور الماركسي معظم أنحاء الغرب «كان ينظر إلى الشيوعية والاشتراكية على أنهما موجة من المستقبل، وكان يتم تبنيهما بشكل أو آخر بواسطة النخب السياسية والفكرية»[٢].

وبذلك عدت روسيا البلشفية (الصيغة اللينينية الستالينية للماركسية) تهديدًا أيديولوجيًا للغرب من خلال أيديولوجية غربية الصنع؛ حيث كان ماركس يردد دائمًا أن اشتراكيته العلمية قائمة على الفلسفة الألمانية والاقتصاد الإنجليزي.

أما بعد الحرب العالمية الثانية فقد «كان نمو الإمبراطورية السوفييتية يعد تأكيدًا للتنبؤات الجيوبولتيكية لماكيندر وغيره بأن ثمة قوة عسكرية عملاقة ستسيطر على موارد قلب أوروبا وآسيا.. وكان لا بد من الانتظار لعدة سنوات حتى تتخلى الإدارات الأمريكية -التي هزتها الحرب الكورية تمامًا- عن أفكارها القديمة عن العالم الواحد، وتستبدل بها صورة من الصراع الرهيب للقوى عبر الساحة الدولية».. فكانت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي هما الدولتان القادرتان على تحديد أقدار

(١) هـ.س. أرمسترونج، الذئب الأغبر، سلسلة تصدر عن دار الهلال العدد١٦: ص١٨٤.

(٢) صمويل هنتنجتون. صدام الحضارات الدار الجماهيرية، الطبعة الأولى ١٩٩٩م: ص٢٣١.

نصف الكرة الأرضية على حد تعبير دي توكفيل، وقد وقعت كل منهما فريسة للفكر ذي الاتجاه العالمي»[١].

الخلاصة أن القوتين اللتين تتقاسمان النفوذ على العالم هما نتاج ثقافة غربية تتفق أيديولوجيتهما في العلمانية والمادية، وإقصاء الدين عن الحياة، وتختلفان ولو شكلاً في الديمقراطية والاستبداد، فبينما يسيطر على الاتحاد السوفييتي نخبة من السياسيين الدكتاتوريين؛ يسيطر على الولايات المتحدة نخبة أكثر اتساعًا من رجال الأعمال والسياسيين والإعلاميين تتحالف فيما بينها على أن لا يخرج القرار الأمريكي في النهاية عن دائرة نفوذهم.

في الجانب العربي من العالم الإسلامي أثارت ذكريات ورواسب العصر الكولينالي (السيطرة الاستعمارية الغربية) مشاعر القلق وخوف من الغرب، ومن ثَم العداء على امتداد العقود التالية للحرب العالمية الثانية بالنسبة لتلك الشعوب التي واجهت ذلك بشكل مباشر، أما بالنسبة للنظرة الجامعة لصالح الأمة الإسلامية فإنها تدرك أن علاقة (روسيا- الاتحاد السوفييتي) بالإسلام كانت أكثر بشاعة، وإيلامًا بالعالم الإسلامي من الغرب.

فالابتعاث الروسي الذي صنعه إيفان الرهيب ومن بعده بيتر العظيم والقياصرة الروس تباعًا قام على أنقاض العالم الإسلامي أساسًا، فكل توسع صنعه الروس كان يمثل انتقاصًا من الإمبراطوريتين الإسلاميتين المغولية والعثمانية، حتى إنه يمكن أن يقال: إن الوجود المادي الروسي (الأراضي التي تقوم عليها الإمبراطورية الروسية) هو وجود إسلامي بالأساس، وبعد قيام الاتحاد السوفييتي تم التهام باقي ما كان يسمى بالجمهوريات السوفييتية الإسلامية.

وعلى هذا الأساس فلم تكن مخاوف العالم الإسلامي من الاتحاد السوفييتي بعد الحرب العالمية الثانية تجد مبعثها فقط في الأيديولوجية وممارسات الستار الحديدي في أوروبا الشرقية، ولكن ربما كان ذلك وبشكل أكبر في تاريخ من الطغيان (الروسي- السوفييتي) على العالم الإسلامي.

إن هذا ما يفسّر لماذا كان الحوار حول تلك النظرية العجيبة، الأمريكية الصنع، القديمة الجديدة، التي تتحدث عن شرق أوسط جديد مقبول لدى أغلب الدول الإسلامية بعد الحرب العالمية الثانية على الرغم من الذكريات المؤلمة التي أحدثها العصر الكولينالي بالنسبة للمسلمين.

في خطاب (الستار الحديدي) الشهير الذي ألقاه تشرشل بكلية وستمينستر في فولتون بولاية ميسوري في وجود ترومان جالسًا على المسرح خلفه عرض تشرشل «أن يتشارك مع واشنطن في أمر قد يثبت أن قيمته لا تقدر كمضاد للاتحاد السوفييتي.. قواعد عسكرية تضاعف قوة الولايات المتحدة، وكانت السويس بلا ريب أحد أهم المواقع في تلك الحسبة. وقد مضى تشرشل قائلاً: «تشعر تركيا وبلاد فارس بعميق مطالب روسيا منهما، والضغوط التي تمارسها عليهما». وقال: إن على بريطانيا والولايات المتحدة في مواجهة تلك التحديات العامة والمحددة تطوير استراتيجية مشتركة»[٢].

لم يكن هذا سوى دعم للمشروع الأمريكي في الأساس، والذي لا يقوم على استعمار أمريكي وريث للكولينالية الأوروبية والبريطانية على وجه التحديد، وإنما على ما يمكن وصفه- مبدئيًا- بتحالف استراتيجي بين معظم دول العالم الإسلامي (الشرق الأوسط) والولايات المتحدة يسمح للأخيرة بممارسة نفوذها القوي في توجيه تلك الدول لمواجهة مطامع الاتحاد السوفيتي في المنطقة.

أو كما يقول لويد سي. جاردنر: «توافق صناع السياسة الأمريكيين على أن الانتقال الآمن يتوقف على قدرة واشنطن على إقناع فاروق وغيره من قيادات دول الشرق الأوسط بأن الولايات المتحدة لن تسمح للقوى الاستعمارية القديمة أي: بريطانيا وفرنسا،

(١) بول كيندي، نشوء وسقوط القوى العظمى، الأهلية للنشر والتوزيع والطباعة – لبنان، ١٩٩٨م: ص٥٠٧.

(٢) لويد سي. جاردنر. مصر كما تريدها أمريكا ترجمة: د. فاطمة نصر، سطور الجديدة، القاهرة الطبعة الأولى٢٠١٢م، ص٣٣.

باستعادة الأوضاع المميزة التي كانت لها قبل الحرب، وبأنها مستعدة لتقديم المساعدات الاقتصادية لتلك البلاد، وأيضًا المساعدات العسكرية؛ شريطة إدارتها بحرص، وذلك لضمان استقلال تلك البلاد وأمنها الداخلي.

كان ينبغي إدارة هذا بأسلوب سهل يسهل الانتقال من النطاق الاستعماري القديم إلى نظام سياسات كوكبية جديدة بقيادة الولايات المتحدة من دون السماح للقوميين أو الشيوعيين باستغلال الوضع لترسيخ أقدامهم في المنطقة»[(١)].

في ظل توازنات القوى العالمية كانت أغلب الدول الإسلامية تميل إلى قبول المشروع الأمريكي، وكان العائق الأساس الذي يواجه ذلك هو التبني الأمريكي للكيان الصهيوني؛ حيث يرفض الملكان ابن سعود وفاروق رفضًا قاطعًا وجود الكيان الصهيوني في إطار هذا المشروع، وفي أوائل الخمسينيات تم القضاء على ثورة مصدق، وتثبيت الشاه على عرشه في إيران، وكان التجاوب الباكستاني والعراقي للمشروع الأمريكي مغريًا لتشكيل ما يسمى بحلف بغداد كمرتكز يمكن أن تنضم إليه تركيا وسوريا بعد ذلك.

كانت العقبة الأساس في الموضوع هي عبدالناصر الذي لم يكن رافضًا للتحالف الأمريكي، ولكن كان يريد مقابلاً اقتصاديًا وسياسيًا وعسكريًا أكبر مما كان يمكن أن يمنحه الأمريكان، وكذلك السماح له برفض المشروع الصهيوني.

على أية حال «فقد كان الاعتقاد السائد بالولايات المتحدة أن عبدالناصر ليس لديه خيار سوى الإذعان لطلبات واشنطن وشروطها».[(٢)]

بعد هزيمة ٦٧ كتب وولت روستو مستشار الأمن القومي مذكرة لجونسون أوجزت الموقف جاء فيها «تحت السطح مباشرة تكمن إمكانية لمرحلة شرق أوسط جديد معتدل: تركز على التنمية والتعاون الإقليمي، وتقبل بإسرائيل كجزء من الشرق الأوسط إذا أمكن وجود حل لمشكلة اللاجئين»[(٣)].

بتجاوز السادات مشكلة الصراع مع إسرائيل تحققت على أرض واقع السبعينيات النظرية الكاملة: شرق أوسط جديد.. دول إسلامية تمتد من باكستان إلى مصر يتم توظيفها أمريكيًا في مواجهة الاتحاد السوفييتي.

وكلمة التوظيف هي الكلمة الأكثر دقة لما كان يطلق عليه مشروع الهيمنة الأمريكية.

مع تصاعد الصحوة الإسلامية، وصراعها مع النظم الحاكمة في الثمانينيات تصاعد معها العداء للولايات المتحدة والغرب بوجه عام على أساس أن الغرب هو المسئول عن مساندة هذه النظم في صراعها مع الإسلاميين.

أما المشكلة الجديدة التي غدت تواجه المشروع الأمريكي منذ أواخر السبعينيات فهي الصحوة الإسلامية المتصاعدة على امتداد العالم الإسلامي، «فلقد كانت الأصولية الإسلامية في الشرق الأوسط تمثل ظاهرة مزعجة تهدد (كما في إيران) بالتنفيس عن نفسها ضد الشيوعيين والجماعات الموالية لأمريكا سواء بسواء»[(٤)].

مع تصاعد الصحوة الإسلامية، وصراعها مع النظم الحاكمة في الثمانينيات تصاعد معها العداء للولايات المتحدة والغرب بوجه عام على أساس أن الغرب هو المسئول عن مساندة هذه النظم في صراعها مع الإسلاميين.

الخلاصة: أن مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية والتي امتدت حتى سقوط الاتحاد السوفييتي في أوائل التسعينيات شهدت تراجعًا نسبيًا في العداء بين الغرب والإسلام، مادام أن تطبيق الإسلام الشمولي لم يتمثل في الواقع الفعلي، وأن عددًا مقدرًا من الدول الإسلامية يمكن توظيفها في تحقيق المصالح

(١) المرجع السابق: ص١٧.
(٢) المرجع السابق: ص٨٢.
(٣) المرجع السابق: ص١٤٤.
(٤) بول كيندي. مرجع سابق: ص٥٧٠.

الغربية الأمريكية بوجه خاص.

ولكن ما إن تصاعدت المطالبة بالتطبيق الفعلي للإسلام في العقد الأخير من هذه المرحلة حتى تصاعد العداء مرة أخرى بينه وبين الغرب.

ثالثًا: نظريات العداء بين الغرب والإسلام ما بعد الحرب الباردة:

عند تحليل الواقع الحالي أو بوجه أدق واقع ما بعد الحرب الباردة وسقوط الاتحاد السوفييتي والذي يشهد تصاعد العداء بين الغرب والإسلام، فإنه عند الوقوف على آراء الكتاب والمفكرين يجب الأخذ في الاعتبار التوجه السياسي لهؤلاء؛ لأن إصدار هذه الآراء قد يكون بدافع تحليل هذا الواقع، وقد يشاركه في ذلك دافع آخر هو دافع التأثير في صناعة هذا الواقع نفسه، وقد يكون أوضح من يمكن الاستشهاد بهم في هذا السياق هو المفكر السياسي الأمريكي هنتنجتون؛ إذ يُعد أحد أهم الموجهين الأساسيين لتيار المحافظين الجدد في أوائل تسعينيات القرن الماضي.

عند الوقوف على آراء الكتاب والمفكرين يجب الأخذ في الاعتبار التوجه السياسي لهؤلاء؛ لأن إصدار هذه الآراء قد يكون بدافع تحليل هذا الواقع، وقد يشاركه في ذلك دافع آخر هو دافع التأثير في صناعة هذا الواقع نفسه.

وأفضل ما في نظرية هنتنجتون هو أنه واضح ومحدد غاية التحديد بلا أيّ لف ولا دوران. فبحسب ما يقول هو نفسه فإن «المشكلة المهمة بالنسبة للغرب ليست الأصولية الإسلامية بل الإسلام»[1].

أما شرح الموضوع فكالتالي:

«يقول بعض الغربيين بما فيهم الرئيس كلينتون: إن الغرب ليس بينه وبين الإسلام أي مشكلة، وإنما المشكلات موجودة فقط مع بعض المتطرفين الإسلاميين. أربعة عشر قرنًا من التاريخ تقول عكس ذلك. العلاقات بين الإسلام والمسيحية سواء الأرثوذكسية أو الغربية كانت عاصفة غالبًا، كلاهما كان الآخر بالنسبة للآخر.. أحيانًا كان التعايش السلمي يسود. غالبًا كانت العلاقة علاقة تنافس واسع مع درجات مختلفة من الحرب البادرة»[2].

ويقول في موضع آخر: «الإسلام هو الحضارة الوحيدة التي جعلت بقاء الغرب موضع شك. وقد فعل ذلك مرتين على الأقل»[3]. ويقصد بذلك معركة بواتيه على حدود فرنسا على يد الأمويين، وحصار فيينا أواخر القرن السابع عشر على يد العثمانيين.

ويتابع هنتنجتون شرحه للموضوع فيقول: «أسباب هذا النمط من الصراع لا تكمن في ظاهرة انتقالية مثل العاطفة المسيحية في القرن الثاني عشر، أو الأصولية الإسلامية في القرن العشرين. إنها تتدفق من طبيعة الديانتين والحضارتين المؤسستين عليهما. الصراع من ناحية نتيجة الاختلاف، خاصة مفهوم المسلمين للإسلام كأسلوب حياة متجاوز، ويربط بين الدين والسياسة ضد المفهوم المسيحي الغربي الذي يفصل بين مملكة الرب ومملكة قيصر. كما كان الصراع نابعًا من أوجه التشابه بينهما.. كلاهما ينظر إلى العالم نظرة ثنائية: «نحن» و «هم» وكلاهما يدعي أنه العقيدة الصحيحة الوحيدة التي يجب أن يتبعها الجميع، كلاهما دين تبشيري يعتقد أن متبعيه عليهم التزام بهداية غير المؤمنين، وتحويلهم إلى الإيمان الصحيح»[4].

ويذكر في موضع آخر أنه «في سنة ١٩٩١م مثلاً كان بارن بوزان يرى عدة أسباب لنشوب حرب مجتمعية باردة «بين الغرب والإسلام تقف فيها أوروبا على خط المواجهة».

هذا التطور له علاقة بالخصومة التاريخية بين المسيحية والإسلام، وبالغيرة من القوة الغربية،

(١) صدام الحضارات: ص٣٥٢.

(٢) المرجع السابق: ص٣٣٨.

(٣) المرجع السابق: ص٣٣٩.

(٤) المرجع السابق: ص٣٤١.

وبالاستياء من السيطرة الغربية الناجمة عن بنية الشرق الأوسط السياسية بعد زوال الاستعمار، وبالشعور بالمرارة والامتهان نتيجة المقارنة البغيضة بين إنجاز الحضارتين الإسلامية والغربية في القرنين الأخيرين»[١].

وهكذا يحدد هنتنجتون خلاصة أفكاره: «المشكلة المهمة بالنسبة للغرب ليست الأصولية الإسلامية بل الإسلام: فهو حضارة مختلفة، شعبها مقتنع بتفوق ثقافته، وهاجسه ضآلة قوته.

المشكلة المهمة بالنسبة للإسلام ليست المخابرات الأمريكية ولا وزارة الدفاع. المشكلة هي الغرب: حضارة مختلفة، شعبها مقتنع بعالمية ثقافته، ويعتقد أن قوته المتفوقة إذا كانت متدهورة، فإنها تفرض عليه التزامًا بنشر هذه الثقافة في العالم. هذه هي المكونات الأساسية التي تغذي الصراع بين الإسلام والغرب»[٢].

قريب من أمر هنتنجتون يأتي موقف فوكوياما، وإن كان حديث الأخير عن حالة العداء بين الإسلام والغرب لا يأتي من باب العداء للإسلام، ولكن من باب الدفاع عن الليبرالية التي يرى فيها النهاية الحتمية للتاريخ يقول فوكوياما:

«المسيحية بمعنى من المعاني كان لزامًا أن تلغي نفسها عن طريق صبغ أهدافها بالصبغة العلمانية قبل ظهور الليبرالية... وقد خضعت ديانات أخرى في مختلف أنحاء العالم لعمليات تحول علماني مماثلة، كالبوذية والشنتوية اللتين قصرتا نشاطهما على مجال عبادة خاصة تتركز حول العائلة. وأما اليهودية الأرثوذكسية والإسلام الأصولي فتراهما على العكس من ذلك. فهما ديانتان شموليتان تسعيان إلى تنظيم كل مظاهر الحياة البشرية عامة كانت أو خاصة، بما في ذلك المجال السياسي».[٣]

ويقول في موضع آخر:

«الآن يبدو أن ثمة اتفاقًا عامًا- إلا في العالم الإسلامي- على قبول مزاعم الديمقراطية الليبرالية بأنها أكثر صور الحكم عقلانية»[٤].

ويظل التناقض بين الإسلام والغرب والليبرالية هو الموقف الذي يذهب إليه أغلب المفكرين السياسيين الغربيين بما في ذلك مفكر أكاديمي إنجليزي هو بريان باري؛ حيث يقول: «على الرغم من أن القرآن لا يؤيد وجود حكومة دينية كما يفترض البعض أحيانًا. فإنه يحتوي على مجموعة من القواعد التي تحدد طريقة تنظيم مجتمع المؤمنين، وهو ما لا يوجد نظير له في الأناجيل، وهذه المجموعة من التعاليم التي قامت أجيال من المفسرين بالتوسع فيها فيما بعد تخلق نوعًا من التوتر بين الإسلام والمعايير الليبرالية، ومن علامات هذا التوتر أنه لم تقم أي حكومة بها أغلبية مسلمة بإقامة دولة ديمقراطية ليبرالية مستقرة»[٥].

أما جيمس كورث أستاذ السياسة الأمريكي فيقدم تحليلاً لعوامل أكثر عمقًا وتفصيلاً للعداء بين الإسلام السني والولايات المتحدة على وجه الخصوص؛ حيث يقول:

«ماذا عن النُّخَب الدينية للفرع السني من الحضارة الإسلامية؟ من الواضح أنها غير متوافرة على دولة حضارية مركزية. وترى نفسها، هي وحضارتها أيضًا، في حالة تناقض وعداء شديدين مع الولايات المتحدة على عدد من الأصعدة المهمة:

١- الإسلام السني حضارة، بل حضارة عظيمة، ولكنها حضارة بلا دولة. في حين أن الولايات المتحدة دولة عظيمة، ولكنها بلا حضارة.

٢- يمثل الإسلام السني مثلاً أعلى ينتظر أن يصبح واقعًا. روحًا تنتظر أن تتجسد (لاسيما استعادة الخلافة)، في حين أن الولايات المتحدة لا تمثل إلا واقعًا ماديًا مبتذلاً، واقعًا تخلى عن المثل الأعلى وهجرته الروح، ونتيجة لـ(١) و (٢) فإن الإسلام السني (٣) هو اليوم في حالة هشاشة مفرطة، لكنها

(١) المرجع السابق: ص٣٤٤.
(٢) المرجع السابق: ص٣٥٢.
(٣) فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ منشورات مركز الإنماء القومي ١٩٩٣م، الطبعة الأولى: ص١٩٣.
(٤) المرجع السابق: ص١٨٩.
(٥) الثقافة والمساواة، ط عالم المعرفة، ج٢ ص٥٤.

زاخرة بالوعود العظيمة، في حين أن الولايات المتحدة اليوم في حالة جبروت عظيم، ولكنها غير منطوية إلا على القليل من الوعود»[1].

أما الرؤية المخالفة لهذا الاتجاه فتأتي من فريتستشيبات العميد السابق لمعهد العلوم الإسلامية بجامعة برلين فهو ينبّه إلى أنه:

«لو سلم الرأي العام في الغرب (المسيحي)- وفقًا لتصور هنتنجتون- بأن الإسلام هو عدوه الطبيعي. لما استنتج المسلمون من ذلك سوى أن علتهم ألا يتوقعوا من الغرب غير العدوان عليهم. ذلك على التحديد هو الذي يمكن أن يدفع المسلمين كافة -بصرف النظر عن الاختلافات القائمة بينهم في المشاعر والمصالح- إلى اتخاذ موقف عدائي ضد الغرب. إن هنتنجتون حتى لو أخذ حضارات أخرى في الاعتبار إنما يضع في الواقع إطارًا نظريًّا لاستنفار كل من الإسلام والمسيحية تجاه الآخر، وهكذا نجده يتنبأ بنبوءة يتوقع لها أن تتحقق»[2].

ثم يؤكد على دور العوامل التاريخية في الصراع فيقول: «لا المسيحية ولا الإسلام بحكم طبيعتهما وماهيتهما يريدان الحرب. ونحن نعلم من التاريخ أن كليهما قد استُغل في بعض العهود لتبرير الحرب وتعبئة جماهير المؤمنين بهما للقتال. ولكن لا ينبغي أبدًا أن نعتبر ذلك هو هدفهما الحقيقي؛ ذلك أن ظاهرة الحرب الدينية يجب دائمًا أن تفسر في إطار سياق تاريخي، وقد ذكرت من قبل أن ظهور عداوة عامة من جانب الغرب تجاه الإسلام يمكن كذلك أن يدفع المسلمين من جانبهم إلى اتخاذ موقف عدواني موحد ضد الغرب، غير أن رد الفعل هذا لن يكون نابعًا من نزعة عدوانية أساسية في داخل الإسلام، بل سيكون نتيجة مترتبة على مجموعة من العوامل التاريخية، وعلى الأفعال وردود الأفعال من كلا الطرفين»[3].

ثم يحاول شتيبات أن يستبعد أسباب الصراع المؤدية إلى تصاعد الأصولية الإسلامية، فيقول:

«إذا انسقنا تحت تأثير ظواهر الأصولية الإسلامية إلى رسم صورة الإسلام كعدو لنا فسوف تترتب على ذلك ثلاث نتائج وخيمة العواقب:

أ- إن هذه الصورة ستحول بيننا وبين البحث في الأسباب التي أدت إلى الأصولية الإسلامية، وتدبر الوسائل التي تساعدنا على استبعاد هذه الأسباب.

ب- وإذا روّجنا هذه الصورة عن الإسلام كعدو، فسوف يؤكد ذلك شعور المسلمين بأنهم محاطون بقوى معادية تتربص بالإسلام، وتسعى للقضاء عليه؛ إننا بذلك ندفع المسلمين دفعًا إلى الأصولية.

ج- إن تصوير الإسلام في صورة العدو سيكون بطبيعة الحال أشبه بصبّ مياه جديدة في طواحين العداء للأجانب الذي تقاسي منه مجتمعاتنا»[4].

لكن هذه الحالة من المصالحة بين الغرب والإسلام (أو الدول الإسلامية بشكل أدق) تنطوي على مفهوم خاص للإسلام يراه تشيبات، ويعني إمكانية تقديم تفسيرات متعددة له يمكنها التوافق مع الحضارة الغربية؛ حيث يقول تشيبات: «والمؤمنون يتمتعون بحرية واسعة في هذا الشأن (أي في حرية التفسير) ما داموا يسعون بإخلاص وصدق للوصول إلى الحقيقة، ومن الممكن -والحال كذلك- أن يتوصل المؤمنون إلى استنتاجات مختلفة عن الموقف الصحيح من قضية معينة، كأن تكون هذه القضية هي قبول أو رفض الحضارة الغربية»[5].

هذا المفهوم الذي يُضمره تشيبات هو نفس معنى الإسلام الليبرالي الذي تأتي تفاصيله في الصفحات التالية.

وما نراه أنه من بعد انتقال الثقل الحضاري الغربي إلى أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية فإن الصراع بين

(١) جيمس كورث، الولايات المتحدة بوصفها قائدًا حضاريًا، ضمن الحضارات في السياسة العالمية، تحرير: بيترجيكاتزنشتاين: ص٧٢- عالم المعرفة.

(٢) فريتس شتيبات الإسلام شريكًا، سلسلة عالم المعرفة، أبريل ٢٠٠٤م، عدد (٣٠٢): ص٦٧.

(٣) المرجع السابق: ص٦٨.

(٤) المرجع السابق: ص٨٣.

(٥) المرجع السابق: ص٦٦.

الغرب والإسلام في هذه المرحلة يتوج في مضمونه العميق مسيرة طويلة من الصراع الفلسفي بين التوجه البرجماتي للحضارة الغربية ومختلف الفلسفات والأيديولوجيات والمذاهب الأخرى، وبعد سقوط الأيديولوجية الماركسية بعد انهيار الاتحاد السوفييتي كان استقطاب الصراع بين الليبرالية البرجماتية والإسلام أمرًا حتميًّا؛ لأنه يحمل الأيديولوجية الوحيدة المؤهلة للصمود والتحدي بحسب رؤية المفكرين الغربيين أنفسهم بعد أن استطاعت الليبرالية البرجماتية تفكيك الأيديولوجيات العالمية الأخرى.

تأتي بعد ذلك مجموعة من العوامل المرافقة لهذا العامل الأساس أو الناتجة عنه؛ كميراث الحروب الصليبية، والصراع بين الغرب والشرق بوجه عام، والماضي الاستعماري، والقضية الفلسطينية، وامتلاك الدول الإسلامية للثروات البترولية، والقلق الغربي الرهيب من انتصار الإسلام على الهوية الغربية داخل الدول الغربية نفسها، كما عبر عن ذلك خطاب شيراك في الجماهير الغاضبة بسبب كون المسلمين قد غدوا عشرة في المائة من فرنسا؛ حيث قال: «أتغضبون لأن المسلمين قد غدوا عشرة بالمائة من فرنسا؟! أقول لكم: انتظروا عشرة أعوام أخرى، وستكون فرنسا كلها من المسلمين»(1).

رابعًا: نظريات التوافق: الشرق الأوسط الكبير- الإسلام الليبرالي- الإسلام المعتدل:

الحلول التي يجدها الغرب للتوافق مع الإسلام أو توافق الإسلام معه بقول أدق يمكن تلخيصها هنا بثلاثة مصطلحات: (الشرق الأوسط الجديد- الإسلام الليبرالي- الإسلام المعتدل)، وتشترك الحلول الثلاثة في هدف واحد هو توظيف الإسلام ودوله في خدمة المصالح الغربية، ويكاد يكون هذا الهدف هو المحور الأساس للمفاهيم الثلاثة، ثم يكون الخلاف بعد ذلك في التفاصيل.

فالشرق الأوسط الجديد (ثم الكبير بعد ذلك في عهد بوش الابن)- كما أشرت سابقًا- هو الرؤية التي قدّمها صناع السياسة الأمريكية فيما بعد الحرب العالمية الثانية لإيجاد تحالف أمريكي إسلامي يتم من خلاله توظيف الدول الإسلامية في مواجهة التوسع السوفييتي، وكذلك كبديل لاحتلال أمريكي مكلف لتلك الدول التي خلفت الاستعمار الأوروبي.

الإسلام الليبرالي هو إسلام بلا ضفاف أو قواعد محددة، فهو إسلام يحتفظ بالشعارات والطقوس من الخارج بينما يعبأ بمحتوى علماني من الداخل، يسقط كل ما له علاقة بالوحي والمقدس والمرجعية الإسلامية، ويضع مكانه العقل النفعي كمرجعية وحيدة للإشارة في تصوراته وسلوكه.

بعد الحرب الباردة وتصاعد الصحوة الإسلامية تم تعديل هذه الصيغة؛ بحيث تستهدف المصالح الأمريكية بوجه عام، وبحيث تتضمن أيضًا بُعدًا جديدًا يتم من خلاله تأكيد التوافق مع الغرب والتخلص من الصحوة الإسلامية في آنٍ واحد، هذا المفهوم هو الإسلام الليبرالي.

«فالإسلام الليبرالي» هو إسلام بلا ضفاف أو قواعد محددة، فهو إسلام يحتفظ بالشعارات والطقوس من الخارج بينما يعبأ بمحتوى علماني من الداخل، يسقط كل ما له علاقة بالوحي والمقدس والمرجعية الإسلامية، ويضع مكانه العقل النفعي كمرجعية وحيدة للإشارة في تصوراته وسلوكه. فهو إسلام مزيف يتفق مع العلمانية والديمقراطية ومبادئ حقوق الإنسان العربية والعولمة الأمريكية، ويتفق مع كل شيء يريدونه في العالم، ووسيلتهم في كل ذلك هي التأويل والتحريف، ولكنه لا يتفق مع الإسلام الحقيقي نفسه»(2).

(1) راجع شرح نظرية كاتب الدراسة في تفسير العداء بين الغرب والإسلام في كتابه (الإسلام والغرب الأمريكي): نظرية في تفسير الصراع.

(2) محمد إبراهيم مبروك. الإسلام الليبرالي بين الإخوان المسلمين والوسطيين والعلمانيين، الدار القومية للنشر والتوزيع: ص٣٠- ٣١.

أما الإسلام المعتدل فهو صيغة أكبر اتساعًا من الإسلام الليبرالي، فإذا كان الإسلام الليبرالي يقوم على عملية تأويل أو تحريف للإسلام؛ فإن الإسلام المعتدل يعني توافق توجهات الدول الإسلامية مع القيم الغربية، سواء قدمت بذلك إسلامًا ليبراليًا أو علمانية خالصة. فكما جاء في تقرير راند ٢٠٠٧م أنه «يجب التشديد على: فوائد اتباع القيم الديمقراطية الليبرالية، مثل المساواة والتسامح، والتعددية وحكم القانون، واحترام الحقوق المدنية وحقوق الإنسان»[١].

ويذكر التقرير في موضع آخر أن «من بين الذين يجب التعاون معهم (المعتدلين طبعًا) جماعات الدفاع عن المرأة التي تدعو إلى المساواة بين الرجل والمرأة»[٢].

ويذكر في موضع آخر أيضًا «إن أهم (وليس من أهم) معركة فكرية مع الإسلام (هنا يذكر التقرير بشكل صريح أن المعركة مع الإسلام نفسه، وليس مع الإسلاميين المتشددين) معركة حقوق المرأة»[٣].

هنا يجب التنويه إلى شيء مهم جدًا، فبالرغم من تأكيد صاحب هذه السطور على أن الإسلام الليبرالي هو الصيغة المفضلة لدى التوجهات الأمريكية في هذه المرحلة[٤]، لكن ذلك ليس أمرًا حتميًا، وإنما يكون ذلك مفضلاً عند تصاعد ضغوط الصحوة الإسلامية، أما عند تراجعها، فإن التوجه العلماني للدول الإسلامية هو المفضل دائمًا لدى الغرب.

خامسًا: ثورات الربيع العربي في ظل الصراع بين الغرب والإسلام:

يقول الدكتور مصطفى يوسف اللداوي تعليقًا على مجريات الأمور في واقع الثورات العربية: «لا يوجد أدنى شك أن الربيع العربي قد سقط، وانتهى إلى الأبد، وإنه لم يعد حلمًا ولا أملاً ولا هدفًا أو غاية؛ فقد استحال إلى خريف قاحل، وفصل مجدب قحط، فيه شمس رغم الخريف حارقة، تكوي ولا ترحم وتحرق ولا تتردد. وفيه آفاق تلسع وتماسيح تبلع وذئاب تفترس، وثعالب تمكر، وزواحف تتسلل، وبوم وغربان تنعق، وبشر هم إلى الشياطين أقرب تتحالف مع الشر وتتعاون مع البغي لا يهمها الحق ولا يعنيها الشعب أو الوطن، تقتل بلا حساب وتتهم بلا ضمير، وتتآمر بلا خُلق ولا دين، ولم يعد هناك ربيع عربي فقد ولَّى منقهرًا ولن يعود، وانكفأ ولن ينهض، وانكسر ولن يجبر، ولفظ أنفاسه مخنوقًا ولن تُبْعث فيه الحياة من جديد»[٥].

لا يوجد أدنى شك أن الربيع العربي قد سقط، وانتهى إلى الأبد، وإنه لم يعد حلمًا ولا أملاً ولا هدفًا أو غاية؛ فقد استحال إلى خريف قاحل، وفصل مجدب قحط، فيه شمس رغم الخريف حارقة، تكوي ولا ترحم وتحرق ولا تتردد. وفيه آفاق تلسع وتماسيح تبلع وذئاب تفترس، وثعالب تمكر، وبشر هم إلى الشياطين أقرب.

ومن الواضح أن الدكتور اللداوي يعبر عن رؤيته للواقع الراهن انطلاقًا من المنطق الأدبي للأستاذ سيد قطب رحمه الله.

وعلى نفس الخط تمامًا وإنما في الاتجاه المقابل يكتب مجدي أحمد حسين: «الانقلاب قد مات إكلينيكيًا؟ أقول: إن هناك دائمًا مسافة زمنية بين الموت الإكلينيكي والموت النهائي الحقيقي وغالبًا وبنسبة ٩٠٪ لا ينجو المريض من الموت الإكلينيكي، بل حتى في حالة الـ١٠٪ من النجاة فإن المريض لن يعود إلى حالته الطبيعية في حالة النظم السياسية؛ فإن الموت الإكلينيكي والسريري لا حل له، والمسألة مسألة وقت»[٦].

إن تلك الرؤيتين المتناقضتين للواقع الراهن -على الرغم من انطلاقهما من موقف عاطفي واحد- تعبران بشكل كبير عن واقع الارتباك الذي تعاني منه الحركة الإسلامية في تعاملها مع أحداث ما يسمى بربيع الثورات العربية. وما يجب الآن عدم التأخر في

(١) تكوين شبكات من المسلمين المعتدلين، مركز الترجمة. ص٦.
(٢) المرجع السابق: ص٢٠.
(٣) المرجع السابق: ص١٠.
(٤) راجع في هذا الصدد. محمد إبراهيم مبروك. (الإسلام الليبرالي).
(٥) الحرية والعدالة. عدد ٢ أكتوبر ٢٠١٣.
(٦) الشعب عدد ١٣ سبتمبر ٢٠١٣.

التسليم به هو أن جهوزية الحركات الإسلامية في دول الربيع العربي لم تكن متوفرة إبان وقوع هذه الأحداث. أما ما لم يتم التسليم به أو حتى تفهُّمه -على الرغم من أنه قد غدا من مسلَّمات العمل الثوري في العالم- فهو أسبقية المشروع الفكري للعمل الثوري، وهو الأمر الذي دفعت الحركة الإسلامية- ومازالت تدفع- ثمنه كبيرًا جدًا.

وفي مقابل التعقيدات العالمية والداخلية قاد الموقف شيوخ نصوصيون أو سياسيون حركيون أو دعاة تقتصر إمكاناتهم في القدرة على إبلاغ الدعوة إلى العوام وجدوا فيما حققوه من شهرة نتيجة لذلك مؤهلاً لهم لقيادة العمل الإسلامي.

كل ذلك دون امتلاك مشروع فكري حقيقي محدد يمكن احتكام الجماهير إليه عند اختلاط الأمور وارتباك الرؤية، والنتيجة هي هذا الكم الهائل من الانقسامات والتمزقات، والثورات والثورات المضادة، وما نجم عن كل ذلك من خسائر في الأرواح والثروات حتى تضاعف القلق في النفوس على مستقبل البلاد، وازدادت أصابع الاتهام لهذه الثورات بكونها صناعة أمريكية تستهدف الفوضى الخلاقة.

وأيًا كان الخلاف حول طبيعة هذه الثورات، فإن الرصد الواقعي لها يؤكد وجود حقيقتين على الأقل:

الأولى: أنه لا يمكن إنكار أن نيران الغضب التي كانت تعتمل في صدور شعوب هذه البلاد ضد حكامها الطغاة كانت سببًا أساسيًا في تفجير هذه الثورات.

الثاني: أن القوى الغربية والولايات المتحدة تحديدًا لم تكن تضع يدها تحت خدها وهي تشاهد هذه الأحداث، وتكتفي بدور المراقب دون تدخل منها، وهذا ليس فيما يتعلق بتفجير الثورات فقط، ولكن فيما يتعلق بأحداث كل المراحل، سواء كانت تتعلق بتفجير الثورات، أو استمرارها، أو إيقافها، أو انحرافها، أو تغيير مسارها.

يقول فرانك سلامة أستاذ دراسات الشرق الأوسط بكلية بوسطن الأمريكية: «إنه من الواضح أن استخدام الأسد للأسلحة الكيمياوية، والتردد وعدم التماسك الذي لاقاه في رد العالم (وخاصة أمريكا) أمور تتطابق مع حساباته وقراءته الماهرة للسياسة الأمريكية. وليس الأسد راضيًا بعدم اتخاذ أوباما لإجراء عسكري ومؤخرًا قرار أوباما بإحالة التعامل مع الأزمة السورية إلى روسيا... إن انعدام السياسة الأمريكية مكون مهم من مكونات بقاء الأسد، وربما انتصاره في النهاية» [1].

ويتحدث نعوم تشومسكي عما يحدث في مصر فيقول: «لم يكن ليحدث دون موافقة البيت الأبيض؛ لأن الخلافات بين مرسي وأوباما أثبتت لأمريكا أن مصر لم تعد منطقة نفوذ أمريكي، أو على الأقل كما كانت، فقد كان مبارك يتبع أسلوب السياسة الناعمة مع الغرب، وتعودوا منه على تلبية أي مطلب حتى التي تضر بالأمن القومي المصري»[2].

إن ثورة الشعوب حقيقة واقعة، والعمل على توجيهها لخدمة المصالح الغربية والأمريكية تحديدًا حقيقة واقعة أيضًا، وهو الأمر الذي يعني أن تحقيق نجاح واستقلالية تلك الثورات له تكلفة غالية للغاية، ومع ذلك يظل السؤال المطروح هو: النجاح من أجل ماذا؟ من أجل أي مشروع محدد وليس مائعًا أو مزيفًا؟

وما يضاعف من أهمية السؤال أن هذا المشروع المستهدف يعكس بشكل حتمي أشكال وحدود الطرق الثورية وغير الثورية المؤدية إليه، وإذا كان من غير المعقول تجميد المرحلة الحالية المتوهجة حتى إنتاج هذا المشروع، فإن كل ذلك يكشف مدى ثقل المهمة المزدوجة التي يتحتم على الحركة الاضطلاع بها، وهي إنتاج المشروع والعمل الثوري معًا، فلعل ذلك يكون تكفيرًا لها عما أبدته من إهمال في إنتاج هذا المشروع منذ زمن طويل.

---

(١) الشروق. عدد ٢٠ أكتوبر ٢٠١٣.
(٢) الشعب. عدد ١٣ سبتمبر ٢٠١٣.

معلومات إضافية

الاستعمار:

مصطلح الاستعمار:

الاستعمار لفظة محدثة مشتقة من عَمَر، واستعمره في المكان أي جعله يعمره، ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١).

فالأصل اللغوي يفيد معنى طلب التعمير والسعي لتحقيق العمران، لكن الواقع لا علاقة له بالمعنى اللغوي.

فهو استيلاء دولة أو شعب على دولة أخرى وشعب آخر؛ لنهب ثرواته وتسخير طاقات أفراده، والعمل على استثمار مرافقه المختلفة.

وهذا التعريف يشمل أنواعًا مختلفة من الاستعمار لا تختلف عن بعضها إلا بالأسماء وبعض الأشكال، فمن أشكال الاستعمار أن تضع دولة ما أخرى تحت حمايتها وإشرافها وتسلبها من حريتها بقدر ما يتناسب مع قوة هذه الدولة وضعف تلك، وفي الأغلب يكون للدولة المحمية شبه سيادة داخلية يمارسها حكام وطنيون تديرهم الدولة المستعمرة من خلف ستار.

ومن أمثلة هذا الشكل للاستعمار ما فعلته فرنسا في تونس؛ حيث وقّعتا معًا معاهدة حماية في ١٨٨١/٥/١٢م، ثم جُددت في ١٨٨٣/٦/٨م، وبموجب بنود هذه الحماية فقدت تونس سيادتها الخارجية وحقها في التمثيل الدبلوماسي المستقل، كما سُلبت حق إبرام المعاهدات الخارجية، وعينت فرنسا آلاف الموظفين يرعون مصالحها يرأسهم المقيم العام.

وما حصل في تونس كررته فرنسا في مراكش بموجب معاهدة ١٩١٢/٣/٣٠م وفعله الإنجليز في مصر خلال احتلالهم لها بين عام ١٩١٤ - ١٩٢٢م.

وبعد الحرب العالمية الأولى ظهر شكل جديد من أشكال الاستعمار أقرته عصبة الأمم المتحدة التي تكونت حينذاك كمنظمة أممية لنشر السلام ومنع الحروب، فقد كرست عصبة الأمم نوعًا جديدًا من الاستعمار وهو الانتداب، حيث وردت إجازته في المادة ٢٢ لميثاق عصبة الأمم التي اعتبرته طريقة للنهوض بالشعوب القاصرة والأخذ بيد هذه الأمم لتكون قادرة على تسيير أمورها، لكنه في الحقيقة كان مظهرًا للاستعمار ووسيلة لامتصاص خيرات الشعوب.

وفيما عدا هذين الوجهين أسفر الاستعمار عن وجهه الكالح، فأعلن عن ضمه لبعض الدول إلى مستعمراته كما فعلت فرنسا بالجزائر.

رؤية تاريخية للاستعمار:

لقد بدأ الاستعمار الغربي للعالم مع بداية عصور النهضة في أوروبا؛ حيث استفاقت أوروبا على وقع طبول الإصلاح الديني والسياسي في القرن الخامس والسادس عشر.

ومنذ أفاقت أوروبا بدأت تحركها للإطباق على العالم الإسلامي، فانتشرت المراكب الاستكشافية تجوب البحار بحثًا عن تحقيق أهداف الاستعمار المختلفة الدينية والسياسية والاقتصادية.

وفي عام ١٤٩٩م توصل فاسكودي جاما إلى طريق رأس الرجاء الصالح، فوصل البرتغاليون إلى الشواطئ الهندية بعيدًا عن المرور في الأراضي الواقعة في سلطة الخلافة العثمانية.

وشرع البرتغاليون يؤسسون مستعمرات ومراكز تجارية في أماكن مختلفة من السواحل التي وصلوا إليها، ولم

يكد النصف الأول من القرن السادس عشر ينقضي حتى كان البرتغاليون قد أحكموا السيطرة على شواطئ شرق إفريقيا وغربها، إضافة إلى شواطئ الخليج وفارس والهند.

وفي عام ١٦٠٠م أنشأت بريطانيا أول جهاز استعماري لها تحت مسمى شركة الهند الشرقية البريطانية، ومثله صنعت فرنسا عام ١٦٦٤م فأنشأت ما أسمته بشركة الهند الشرقية الفرنسية، وبدأ الصراع والتنافس بين الدولتين، وانتهى بانتصار الإنجليز عام ١٧٧٥م – ١١٧١هـ ، وخروج فرنسا من الهند والصين.

وفي عام ١٧٩٨م – ١٢١٣هـ وصل نابليون يقود الحملة الفرنسية على مصر، ثم حاول السيطرة على بلاد الشام، فغادر وهو يحمل أدراج الخيبة لكثر من قُتل من جنوده هناك، ثم ما لبث أن عاد إلى فرنسا ولحقته جيوشه عام ١٨٠١م.

وفي عام ١٨٢٧م أعلن الملك شارل العاشر اعتزام فرنسا إنشاء مستعمرة ذات شأن في شمال إفريقيا، وزحفت الجيوش الفرنسية لاحتلال الجزائر عام ١٨٣٠م، واستتب الوضع لهم عام ١٨٥٧م، وهو نفس العام الذي قضت فيه بريطانيا على الإمارة الإسلامية المنغولية في الهند، وقد ألحقت فرنسا الجزائر بها عام ١٨٨١م، وهي نفس السنة التي أعلنت فرنسا وضعها تونس تحت الحماية الفرنسية بموجب ميثاق باردو، ثم السنغال ومدغشقر عام ١٨٨٢م، في عام ١٨٨٧م – ١٢٩٥هـ وقع مؤتمر برلين لاقتسام مواقع النفوذ في الوطن العربي. وتوالى بعد ذلك سقوط البلاد العربية والإسلامية في قبضة الاستعمار.

فسيطر الفرنسيون على المغرب سنة ١٩١٢م، وعلى سورية سنة ١٩٢٠م.

وأما الإيطاليون فاحتلوا الصومال وإريتريا عام ١٨٨٧م، وزحفت إيطاليا لاحتلال الساحل الليبي عام ١٩١٤م، وأكملت الاحتلال خلال نفس العام.

فيما احتلت إنجلترا مصر ووضعتها تحت الحماية عام ١٨٨٢م، وكانت قد احتلت بلاد البنغال عام ١٧٥٧م، والبنجاب عام ١٨٤٩م، ثم احتلت نيجيريا عام ١٨٥١م. وفي عام ١٨٩٨م احتلت بريطانيا السودان ثم العراق ١٩١٩م، ثم الأردن عام ١٩٢٠م.

وفي المشرق الإسلامي انقض الروس الأرثوذكس على بلاد المسلمين فأخذوا ما يحاذيهم منها، وضموه إلى بلادهم، ففي ١٦٧٠م دخل الروس بلاد الأورال، وأحكموا السيطرة على مسلميها، وفي عام ١٨٥٩م ضمت روسيا طشقند، ثم القوقاز عام ١٨٦٤م، ثم بخارى عام ١٨٨٢م، فيما دخلت بلاد التركستان تحت سيطرة الروس عام ١٨٨٤م.

وقد استمرت السيطرة الروسية على بعض هذه البلاد إلى يومنا هذا؛ فيما نجت بلاد أخرى، وشكلت حكومات مستقلة بعد سقوط الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩٠م.

فيما تحررت البلاد الإسلامية جملة من الاستعمار الفرنسي والإنجليزي والإيطالي (العسكري) في أواسط القرن العشرين.

أعمال الاستعمار:

وخلال تاريخ الحركة الاستعمارية الغربية للعالم الإسلامي وبقية المستعمرات أظهر المستعمر الغربي صورًا قاتمة كالحة ملؤها الظلم والقهر والاستغلال.

فعلى الصعيد الإنساني ارتكب المستعمرون مجازر بحق الشعوب التي قامت تدافع عن دينها وخيراتها، فقد بلغت أعداد قتلى المسلمين في الهند حتى عام ١٨٨٠م مليون مسلم سقطوا على يد الإنجليز، وكذلك كانت الجزائر بلد المليون شهيد.

وكان البرتغاليون قد أحدثوا مجازر عند سيطرتهم على الشواطئ الهندية، ويسجل القائد البرتغالي البوكيرك بفخر بعضًا منه وهو يخاطب ملك البرتغال مهنئًا إياه بالسيطرة على مقاطعة جوا الهندية فيقول: «وبعد ذلك أحرقت المدينة، وأعملت السيف في كل الرقاب، وأخذت دماء الناس تراق أيامًا عدة.. وحيثما وجدنا المسلمين لم نوقر معهم نفسًا، فكنا نملأ بهم مساجدهم، ونشعل فيها النار، حتى أحصينا ستة آلاف روح هلكت، وقد كان ذلك يا سيدي عملاً عظيمًا رائعًا أجدنا بدايته وأحسنا نهايته»!!

السياسات الاستعمارية:

قام عددٌ من المُستعمرين بفرض أسلوب حياتهم على المستعمرات، فقد كانوا يؤمنون بتدنّي مستوى ثقافة المناطق المُستعمَرة قياسًا إلى ثقافتهم. وحاول بعض هؤلاء الحكام أن يُغيّروا من ديانة المناطق التي يَستعمِرونها، كما عَمَدوا إلى جعل لغتهم الأجنبية اللغة الرسمية في تلك المستعمرات. وفي عدد من الحالات، حاول الحكام المستعمرون أن يحلوا ثقافتهم الخاصة محلَّ الثقافة المحلية. وساعد الحكام المستعمِرون في تطوير وتحديث المستعمرات عن طريق إنشاء خطوط السكك الحديدية والطرق البرية والمصانع، وكذلك عن طريق إنشاء المدارس والمستشفيات. لكنَّ القوى الاستعمارية كانت تحرص على تَبني سياسات اقتصادية وسياسية مفيدةٍ للاستعماريين أنفسهم.

السياسات الاقتصادية:

عَمدت الدول الاستعمارية إلى الاستفادة من العوائد الاقتصادية للمستعمرات. وفي العصور القديمة، كانت هذه القوى تزيد من ثروتها عن طريق السُّخْرة (العمل بدون أجر)، كما فُرضت الإتاوات على الشعوب المُستعمَرة بدعوى حماية هذه الشعوب من الدول الأخرى.

الإدارة السياسية:

اختلفت طرق الحكم في المستعمرات بشكلٍ كبير، فبعض الدول الحاكمة عمدت إلى جعل المستعمرات مستقلةً بشكلٍ كامل على حين أنَّها أعطت دولاً أخرى شيئًا من الحكم الذاتيّ. وإذا نظرنا في سياسات بلجيكا وفرنسا وبريطانيا والبرتغال في كلٍّ من إفريقيا وآسيا، فإننا نجد تباينًا في نظم الحكم.

المصادر:

١- الاستعمار في العصر الحديث، ودوافعه الدينية، د. منقذ بن محمود السقار، متاح على الرابط التالي:
http://www.saaid.net/Doat/mongiz/16.htm

٢- الموسوعة العربية العالمية /http://www.intaaj.net